الشهيدة أم أيمن . . . وجيل الثورة

مع مرور 30 عاما على اغتيالها رحمها الله

بقلم نبيل شبيب

كان ممّا خاطبت الشهيدة به زوجها، وتضمّنه كتيّب "كلمات":

(كم أتمنّى يا عصام – وهذا جزء من ضعفي البشري وشعوري الإنساني لم أستطع التخلّص منه بعد– أن نعود قبل موتنا إلى دمشق، وأن نقضي ما بقي من حياتنا –إن كان في حياتنا بقية– هناك، وأن نُدفن – عندما يُحَمُّ أجلنا– في تربة الدحداح أو الباب الصغير.. ولكن يبدو لي –والموت يتعقّبنا في كلّ مكان– أنّنا سنُدفن في الغربة كما عشنا في الغربة.. بعيداً بعيداً عن الأهل والوطن).

استشهدت أم أيمن، ابنة الشيخ الجليل علي الطنطاوي رحمه الله، وزوج معلّم الجيل عـــصام العطـــار حفظه الله، يوم 1981/3/17م، ودُفنت في الغربة، بعيداً بعيداً عن الأهل والوطن، وقد حرمت وأســـرتها من الأهل والوطن، لا لذنب إلاّ أنها كانت مع زوجها ترهن حياتها ومماتها للعمل من أجل الأهـــل.. أهـــل سورية جميعا، والوطن، الوطن السوري كلّه، بينما كان الأهل والوطن في قبضة الاستبداد والفساد.

وتابع زوجها عصام العطار الطريق، طريق الدعوة في سبيل الله، والجهاد ضدّ الاســـتبداد والفـــساد، والعمل من أجل الإنسانية والإنسان، والتحرّر والأحرار، والحق والكرامة والعدالة.. تابع الطريق ثلاثـــين سنة متوالية بعد حرمانه ممّن يخاطبها بقوله:

"بَنَانُ" يا أُنْسَ أَيّامي التي انْصَرَمَتْ

وَلَيْسَ يومُكِ في قلبي بِمُنْصَرِمِ

ويا رفيقَةَ دَرْبي والدُّنا ظُلَمٌ

نَشُقُّ دَرْبَ الهُدَى في حالِكِ الظُّلَمِ

ولا يزال وقد تجاوز الثمانين كما عرفناه لأوّل مرة أيّام الصبا قبل زهاء خمسين عاما، خطيبا في مسجد الجامعة في دمشق يصدع بالحق في فترة عقد الخوف فيها الألسنة وحطّم الأقلام:

وَما سَـــمِعْـــت مَـــقـــالاً لا يُجَـــسِّـــدُهُ

صِدْقُ الفِعـــالِ يُـــرَبِّـــي خيـــرَةَ الزُّمَـــرِ

مُذْ كُنْتُ أُكْبِـــرُهُ فـــي الشَّـــامِ يَخْطُبُهـــا

فَالحَـــقُّ يَصْـــدَعُ وَالطَّاغـــوتُ في قَهَـــرِ

ما هـــانَ يَـــوْماً وَلا هانَـــتْ عَريكَـــتُـــهُ

لِمـــا تَتـــالـــى مِـــنَ الأَحْقـــادِ وَالنُّـــذُرِ

وَفـــي النَّوائِـــبِ قَدْ حارَ الحَكيـــمُ بِهـــا

تَـــراهُ يَشْـــمَخُ مِثْلَ الطَّـــوْدِ لَـــمْ يَحَـــرِ

وَذي "الشَّهيدَةُ" في العَلْيـــاءِ راضِـــيَـــةٌ

عَنْ قَلْبِ زَوْجٍ عَظيمِ الحُزْنِ لَمْ يَخُـــرِ

جَريـــمَـــةٌ هَزَّتِ الدُّنْيـــا بَشـــاعَتُـــهـــا

وَفي المَدامِعِ لَمْ يَجْـــزَعْ مِنَ الغِيَـــرِ

وَفـــي الثَّمـــانيـــنَ حَوْلاً لا يُطاوِعُـــهـــا

إِنْ تَشْـــكُ مِنْ ثِقَـــلِ الأَعْبـــاءِ يَنْتَـــهِـــرِ

أختاه الشهيدة.. يا من كنت تقولين وتكتبين :

(كيف لا أكون متفائلة ونورُ الله يعمر قلبي، ويضيء عينيّ ودربي، وأنا أحسّ وأوقن –مهما ضـــاقت الدنيا، واشتدّت الظروف– أنّ الله معنا، يسمعنا ويرانا.. وأنّ الحق الذي نؤمن به، ونجاهد من أجله، لا بدّ أن يكون له النصر على الباطل.. وأنّنا سنفوز –إن صدقنا وصبرنا– بإحدى الحسنييْن: النصر أو الجنّة).

أختاه الشهيدة.. يا من كنت تخاطبين إخوتك وأخواتك فتقولين:

(ألا فلْنهاجرْ –أيها الإخوة والأخوات– إلى الله بقلوبنا وعقولنا وحياتنا، فلْنهاجرْ إلى كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإلى هداية الإسلامِ في كلِّ مجال، ولْننطلقْ بالإسلام، ومنَ الإسلام، لنعيد بناء أنفسنا من جديد، وبناء مجتمعنا من جديد، وبناء عالمنا من جديد).

أختاه الشهيدة.. كأنّني بك تلهجين بشكر الله في العلياء وأنت تبصرين جيل "الإخوة والأخوات" من الشبيبة في بلادك، سورية وأخواتها، وقد انطلقوا على الطريق، يواجهون الاستبداد والفساد ثائرين ثـــابتين صامدين صابرين، ويقوّضون صروحه المهترئة، صرحا بعد صرحا، فيرتعد لمرآهم الطاغوت في أرضـــهم، والطاغوت في عالمهم، ويستبشر بهم الأخيار الأحرار في كل أرض وتحت كلّ سماء ..

أختاه الشهيدة.. ما كان دم الشهادة ليضيع هدرا وقد وعد الله تعالى العاملين المجاهـــدين الـــصادقين بعونه ونصرته، ما كانت دعوات المظلومين المحرومين من حرياته وحقوقهم لَتُحجب عن السميع البـــصير القدير، فهذا أملُك وتفاؤلُك بالمستقبل المضيء بانتصار الحق وإزهاق الباطل يتحقّق بإذن الله، ويوشك أن يعمّ أرض العرب والمسلمين والعالم بنور الكرامة والعزّة والهداية، على أيدي جيل كنت طـــوالِ حياتـــك المعطاءة تتفاءلين بأن يتحقق النصر على يديه، وقد أوشك يتحقق، وأن تغمر العدالة والكرامـــة والعـــزة والحرية حياته، وقد أوشكت.. رغم ما يلقاه من صلف الطاغوت وعنته، وبطشه وجبروته.

لقد أبصر جيل الثورة على الاستبداد والفساد طريقه، ومضى.. فهيهات هيهات أن تصل به عزيمتـــه وتضحياته إلاّ للنصر الموعود، وأن تسفر ثوراته المباركة إلاّ عن إظهار الحق وإزهاق الباطل، ودحْر الطغيان راغما وسقوط الفساد والإفساد إلى حيث يستحقّ الفاسدون المفسدون في الأرض.

أختاه الشهيدة.. أدعو الله تعالى أن يزيدك وأخواتك وإخوانك من الشهداء نعيما كمـــا وعـــد، وأن يثبّت أقدامنا على الطريق الذي مضيتِ عليه غير عابئة بالغربة والتـــشريد، والملاحقـــة في أنحـــاء الأرض بالرصد والكيد ومحاولات الاغتيال المتعددة.. فلئن تحقق للمجرم ما أراد يوم استشهادك عند باب بيتك، فنصيبُه سخطُ الله تعالى في الدنيا والآخرة، وتحقق لك أنتِ ما تطلّعت إليه من رضوان الله ومغفرته وجنّـــة عرضها السموات والأرض –كما وعد جلّ وعلا– لتكوني مع الأنبياء والصديقين والـــصالحين، وحـــسن أولئك رفيقا، ولسوف نبقى من بعدك بإذن الله على العهد كما كنت تـــردّدين (ســـنفوز – إن صـــدقنا وصبرنا– بإحدى الحسنييْن: النصر أو الجنّة).